الأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

للأستاذ محمد سعيد العريان

١٨٨٠ — ١٩٣٧

— ٤٢ —

مقالات منحولة

كثيراً ما تدعو الدواعي كاتباً من الكتاب إلى إنشاء مقال لايذيله باسمه ؛ ويكاد يكون من الشائع المألوف أن يقرأ القراء مقالاً في صحيفة من الصحف غير معزوّ إلى قائله، أو مرموزاً إليه رمزاً ما؛ ولكن من غير المألوف أن ينشىء كاتب من الكتاب مقالة أو فصلا من كتاب ، أو كتاباً بتمامه ، ثم ينسب ماينشئه إلى كاتب غيره . والرافعي في تاريخه الأدبي حوادث من مثل ذلك ؛ فثمة مقالات ، ورسائل ، وكتب متداولة مشهورة ، يعرفها القراء لغير الرافعي ، وهي هي من إنشائه وكدّ فكره وعصارة قلمه ، ولكنه آثر بها غيره زهداً عنها أو التماساً للنفع من ورائها . ولو أني أردت أن أستقصي ما أعرف من ذلك لأغضبت كثيراً من الأحياء أحرص على رضاهم وأخشى غضبهم ؛ ولقد كنت على أن أطوي هذا الفصل حرصاً على مودتهم ، ولكني وقد وضعت نفسي بهذا الموضع لأكون مؤرخاً بعيداً عن التهمة — لم تطب نفسي بكتمان الشهادة ، فاذا لم يكن بد من أن أذكر كل ما أعرف ، فحسبي اللمحة الدالة والاشارة الموجزة ، وللحديث بقية إلى حين ، ومعذرة إلى أصدقائي ...

* * *

في سنة ١٩١١ أصدر الرافعي كتاب تاريخ آداب العرب فتقبله الأدباء بقبول حسن ، وكتبت عنه المقالات الضافية في كبريات الصحف ، ولكن ذلك لم يكف الرافعي ؛ ففي ذات يوم قصد إلى جريدة « المؤيد » فلقي هناك صديقه المرحوم احمد زكي باشا فأهدى إليه كتابه ورجاه أن يكتب فصلا عنه ؛ فقال زكي باشا: « وماذا تريدني أن أكتب ؟ » قال الرافعي : « تقول وتقول... » قال زكي باشا : « فاكتب ما تشاء وهذا إمضائي ...! » وجلس الرافعي إلى مكتب في دار الجريدة ، فكتب ماشاء أن ينسب إلى صديقه في تقريظ كتابه ، ثم دفعه إليه فذيله باسمه ودفعه إلى عامل المطبعة ...

وقرأ الناس في اليوم التالي مقالاً ضافيا بامضاء « أحمد زكي باشا » في تقريظ « تاريخ آداب العرب » شغل الصفحة الأولى كلها من الجريدة . ولكن أحدا من القراء لم يعرف أن كاتب هذا المقال هو الرافعي نفسه ، يثني على كتابه ويطري نفسه !

ولهذه الحادثة أخوات مع زكي باشا نفسه ؛ فانه لما أنشأ الرافعي نشيده « اسلمي يامصر ... » قرأ القراء مقالاً في الأخبار بامضاء احمد زكي باشا ، يثني على النشيد ويطري مؤلفه ، ولم يكن كاتب هذا المقال أحداً غير الرافعي ؛ بل إن أكثر المقالات التي يراها القراء في الكتيب الصغير الذي نشره الرافعي عن نشيده هذا (١) ، هو من إنشائه أو من إملائه !

وقد ظل هذا (التعاون) وثيقا بين المرحومين زكي باشا والرافعي إلى أخريات أيامهما ؛ ومنه أن زكي باشا كان على نية إعداد معجم لغوي كبير قبيل وفاته ، وكان للرافعي في إنشاء هذا المعجم أثر ذو بال ، وفيه فصول كتبها الرافعي بتمامها وأعدها للإمضاء ... ولكن المنية أعجلت المرحوم أحمد زكي باشا عن إصدار هذا المعجم ، وأحسبه مايزال محفوظاً بين مخلفاته المخطوطة

* * *

ويتصل بسبب إلى هذه المقالات التي كان ينحلها الرافعي صديقه زكي باشا ، ما تحمل أخاه المرحوم محمد كامل الرافعي من شرح ديوانه الذي أصدر منه جزءين ١٩٠٣ — ١٩٠٤ ؛ فان شارحهما هو الرافعي نفسه ، وفيهما عليه ثناء وإطراء

* * *

في الحادثتين السابقتين إشارة إلى بعض الأسباب التي كانت تحمل الرافعي على أن ينحل أصدقاءه بعض ما يكتبه ؛ وهنالك أسباب أخرى :

في سنة ١٩١٧ وقعت في طنطا جريمة قتل مروّعة ؛ وكانت القتيل امرأة عجوزاً مسموعة بالغنى والشح والكزازة ، تزوّجها قبيل مقتلها شاب من الشباب العابثين طمعا في مالها ، فلم يلبث معها إلا قليلا ثم وقعت الجريمة !

وتوجهت التهمة أول ما توجهت إلى زوجها الشاب ، ثم

(١) نشيد سعد باشا زغلول ، المطبعة السلفية

انصرفت عنه إلى أختها وزوج أختها فسيقا إلى قفص الاتهام ، وكانا شيخين عجوزين فيهما بلاهة وغفلة ، فلم يستطيعا الدفاع عن نفسيهما ، وهيّئا بغفلتهما وبلادتهما الفرصة للجرم الحقيق أن يحوك حولها الشبكة وأن يصوّب عليهما أدلة الاتهام لينجو هو من العقوبة ...

كان المجرم الحقيق معروفاً للجميع ، ولكن المحكمة بما اجتمع لديها من براهين مصنوعة لم تجد أمامها غير هذين البريئين المغفلين فألقت بهما إلى السجن المؤبد ؛ وقضيا فى السجن بضع سنين !

شيخان على أبواب الأبدية ، يساقان إلى ظلام السجن ليس من ورائه إلا ظلام القبر ، ولم يقترفا جريمة أو يرتكبا إثماً ... ولكن القانون قد قال كلمته ، والقانون حق واجب الاحترام ؛ فلم تبق إلا الرحمة الانسانية شفيعاً من قسوة القانون ...

وسمعت أسرة السجينين إلى المحامى الأديب الأستاذ حافظ ع تطلب إليه أن يكتب استرحاماً فى أمرهما إلى أمير البلاد ، لعل فى عطفه مايأسو الجرح ويخفّف وقع المصاب ، وجعلت له أجراً على ذلك مائة جنيه !

وماذا يقول المحامى فى قضية فرغت المحكمة من أمرها وقال القضاء كلمته ؟

ليس هذا سبيل المحامى الذى يرتّب القضايا ويستنبط النتائج ويستنطق الصامت ويستوضح الغامض ؛ لقد فات أوان ذلك كله فلم تبق إلا كلمة الشاعر الذى يخاطب النفس الانسانية فيجتلب الرحمة ويستدر العبرة ويحسن الاعتذار عن البشرية من أخطائها فيذكى العاطفة الخابية ويوقظ الاحساس الراقد ويتحدث إلى القلب الانسانى حديث الوجدان والشعر والعاطفة ...

وقصد الأستاذ حافظ إلى صديقه المرحوم الرافعى ، ليضع القضية بين يديه ويسأله أن يكتب الاسترحام إلى أمير البلاد ، وسمى له أجرة إن توفق فى مسعاه

وقرأ الرافعى القضية وأحاط بها من كافة نواحيها ، ثم شرع قلمه وكتب ... وبلغت صيحته حيث أراد فأفرج عن السجينين فى مايو سنة ١٩٢١

وتناول الرافعى أجرته على ذلك من المحامى سبعة عشر جنيهاً واستبقى المحامى لنفسه ثلاثة وثمانين ...

فى هذا الاسترحام الذى كتبه الرافعى فى بضع وأربعين صفحة ومحله وعقله المحامى ليطبعه باسمه ، لون من أدب الرافعى غير معروف لقرائه ؛ فيه تحليل نفسى بديع ، وفيه شعر إنسانى يبلغ الغاية من السموّ ؛ وفيه منطق واستنباط وملاحظة دقيقة لا تجد مثلها فى أساليب الأدباء

وقد ظل هذا (التعاون) الأدبى متصلاً بين الرافعى وصديقه الأستاذ حافظ إلى ما قبل موت الرافعى ؛ ولكن هذا (التعاون) قد خرج من نطاق القضايا والمحاكمات إلى نطاق أدبى آخر ليس من حقى أن أتحدث عنه اليوم[1] ... وعند الأستاذ الزيات بقية الخبر ، تحدث به الرافعى إليه فى مجلس ضمنا نحن الثلاثة ...

* * *

وفى شهر ديسمبر من سنة ما، قصد الأستاذ جورج إبراهيم إلى صديقه الرافعى ، فأشار إليه أن يعد كلمة عن المسيح لتلقيها فتاة مسيحية فى حفلة مدرسية فى ليلة عيد الميلاد ...

وكتب الرافعى المسلم كلمة مسلمة فى تمجيد المسيح فدفعها إلى صديقه ... وألقتها الفتاة فى حفل حاشد من المسيحيين المثقفين فخلبت ألبابهم واستحقت منهم أبلغ الاعجاب

وفى الشهر التالى كانت هذه الخطبة المسيحية الرافعية منشورة فى « المقتطف » منسوبة إلى الفتاة . وكانت عند أكثر القراء المسيحيين إنجيلاً من الانجيل

تحت يدى الآن النسخة الأصلية من هذه الخطبة مكتوبة بخط الرافعى ، وهى النسخة التى بعث بها إلى صديقه الأستاذ جورج ليدفعها إلى الفتاة ؛ وفى صدرها بخطه إلى صديقه : « هذا ما تيسر لي على شرط الفتاة ، فتنقح فيه ما شئت ، واضبط لها الكلام . والسلام »

وفى آخرها يتفكه مع صديقه (« وعلى الأرض السلام، وفى الناس المسرة » والمضرة ، والمرة يا عم جورجى[2])

* * *

وكان الأستاذ عبد الرحمن البرقوقى — صهر الرافعى — من تلاميذ الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده المقربين ، وكان أدنى منزلة إليه من كثير من تلاميذه ، على أن تأثره به كان من الناحية الأدبية وحسب ، على حين كان تلميذه المقرب المرحوم السيد رشيد رضا مخصوصاً بالرواية عنه فى الناحية الدينية ، فكلاهما من تلامذة الأستاذ الامام ولكن لكل منهما نهجه وشرعته

(١) حدثنى حديث هذه القضية الأستاذ الأديب جورج ابراهيم صديق الرافعى وملازمه من لدن نشأته

(٢) تنشر هذه الخطبة فى العدد التالى من الرسالة إن شاء الله

فلما هم الأستاذ البرقوقي أن يصدر مجلة البيان[1] — وكان للسيد رشيد رضا قد سبقه بإصدار مجلة المنار — قصد البرقوقي إلى الرافعي يقول له: «إنني لا أتصوّر كيف يصدر العدد الأول من (البيان) وليس فيه كلمة أو حديث أو مجلس من مجالس المرحوم الأستاذ الامام، وأنا كنت أدنى إليه مجلساً من رشيد رضا الذي لا يصدر عدد من مجلته — المنار — إلا وفيه حديث أو خبر أو مجلس من مجالس الشيخ محمد عبده!»

قال الرافعي: «فابدأ العدد الأول بما شئت من حديثه أو مجالس درسه!»

قال البرقوقي: «لكني لا أجد عندي ما أرويه عن الامام؛ لقد ترك الشيخ في نفسي أثره ولكنه لم يترك في ذاكرتي من حديثه ومجالسه شيئاً يستحق الرواية!»

قال الرافعي: «... ولا بد من ذكر شيء عنه في البيان؟»

قال: «بلى، وإلا غلبني رشيد رضا واستطال عليّ عند قرائه بأنه هو وحده تلميذ الامام وراويه!»

وضحك الرافعي وأطرق هنيهة، ثم تناول قلما وورقة وكتب...

وصدر العدد الأول من مجلة البيان، وفيه حديث يرويه البرقوقي عن الشيخ محمد عبده في مجلس من مجالس درسه؛ بأسلوب من أسلوبه وروح من روحه وبيان في مثل بيانه؛ وما قال المرحوم الامام شيئاً من ذلك ولا تحدث به، ولكنه حديث مصنوع وضعه الرافعي على لسان الأستاذ الامام ونشره البرقوقي ليقضي لبانة في نفسه...

... ألقى إليّ الرافعي هذا الحديث ساخراً، ثم دفع إليّ العدد الأول من مجلة البيان وهو يقول: «اقرأ؛ أترى هذا الحديث من مهارة السبك بحيث يجوز على القراء أنه من حديث الأستاذ الامام؟»

وضحكتُ وضحك الرافعي وعاد يقول: «ولكن تمام الفكاهة أن السيد رشيد رضا لما قرأ هذا الحديث المصنوع، التفت إلى جلسائه قائلاً: «وأي حديث هذا حتى يبدأ به البرقوقي مجلته؟ لقد كنت حاضراً مجلس الشيخ، وسمعت منه هذا الحديث، ولكني لم أجد له من القيمة الأدبية ما يحملني على روايته...!»

... واستمرّ هذا (التعاون) أيضاً بين الرافعي والبرقوقي طول المدة التي كانت تصدر فيها مجلة البيان، فأيّ مقال قرأت من أعداد هذه المجلة فشككت في نسبته إلى مُذَيِّله باسمه، فاحمله على أنه مما كتب الرافعي من الأدب المنحول...

ويدخل في هذا الباب كثير من المقالات كان الرافعي يكتبها بأسماء طائفة من زعماء التأديين؛ ليدفع عن نفسه في حالة، أو يدعو إلى نفسه لمغنم، أو ليعين صاحباً على العيش، أو ليوحي إلى (صاحب الامضاء) إيحاء يدفعه إلى الاستمرار في الأدب والأمل في أن يكون غداً من الكتاب المشهورين... وليس يعنيني في هذه الناحية أن أسمي أحداً أو أشير إليه، إذ كان الذي كتبه من ذلك ليس له من القيمة الأدبية ما يدعونا إلى الحرص على تصحيح نسبه، وأكثره لغو مما يُنشر في بعض الصحف لملء الفراغ

محمد سعيد العريان

* * *

١ — إلى الأخ الأديب علي نور الدين بالمنصورة: وساوسك يا صديقي لا تقوم على أساس، فطب نفسا وروض قلبك على الاطمئنان، فليس في ظروف قضيتك ما يحملك على هذه الأوهام جميعا، وأنت في حاجة إلى الاستجمام والراحة لتصح نظرتك إلى الحياة والناس!

٢ — إلى الأستاذ الفاضل إبراهيم علي أبو الخشب: ليس عندي علم فيما تسألني غير الاستنتاج، ولست أجد لنفسي بذلك حقا في الدخول بين الرافعي وحافظ، أو بين حافظ والامام — على أن الصداقة بين الرافعي وحافظ يرجع تاريخها إلى سنة ١٩٠٥، أي بعد نشر ديواني الرافعي وحافظ. تحياتي وأشكر لك

٣ — الأديب وديع سليمان — نابلس: فلانة هي التي ظننت وأشكر لك رأيك

٤ — الأديب محمد يوسف الرفاعي — بصرة — العراق: شكرى لك ولاخوانك. في كتاب «حياة الرافعي» الذي يصدر قريبا جواب ما سألتني

(١) مجلة البيان: هي مجلة أدبية كان لها في حلبة الأدب قبيل الحرب صولة وسلطان، وهي غير البيان التي كان يصدرها المرحوم ابرهيم اليازجي

والانسان يبحث عن السر الشباب. أما العثور على هذا السر الطبيعي فلم يكتشف الا حديثا بواسطة علم العلاج بالهرمونات الذي يرجع فيه رجال فيادته. بدون منازع. العلامة الأستاذ الدكتور ساليتوس أخيرا شفاءه. فقد قدم إلى الانسان في البوتيرا السر الطبيعي الوحيد الذي قوى الشباب. أزال الروماتيزم من أعضاء الشيخوخة الهرمة. ايقاظ [illegible] في حالات. سرعة القذف. يجب استعمال قوي تيطس نمره ٣. ولزيادة معرفة كل ما يختص بالأمور التناسلية يجب طلب الكتاب. الحياة الجديدة. الذي يرسل البك وظيفة للنسخة الفرنسية أو الانجليزية المجلدة برسوم ذات ٥ ألوان و٣ للنسخة العربية. أرسل المبلغ طوابع بريدية. جلاتهوريان ص ب ٢١٠٥ بمصر